وليم كلي رايت

تاريخ الفلسفة الحديثة

ترجمة
محمود سيد أحمد

تقديم ومراجعة
إمام عبد الفتاح إمام

الفصل الرابع عشر

هيجل

١ ـ حياته وشخصيته

تطور فكر جورج فلهلم فردرش هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) F.W.F. Hegel، أعظم فيلسوف ألماني منذ كانط، ببطيء أكثر من فشته أو شلنج، ربما لأنه كان أكثر دقة؛ وعلى أية حال، فقد نجح في النهاية في أن يقدّم للعالم نسقًا من المثالية أكثر معقولية وشمولًا. ينحدر هيجل من أسرة من طبقة أعلى من المتوسطة كانت تعيش في «شتوتجرت». وعندما كان طالبًا مع شلنج في معهد «توبنجن»، كان يبدو أنه واعد ولكن بدرجة أقل من شلنج، على الرغم من أنه كان أكبر منه بخمس سنوات. وبعد أن ترك الجامعة، عمل مدرسًا خصوصيًا متواضعًا خلال السبع سنوات بين عام ١٧٩٤ وعام ١٨٠١، التي أصبح أثناءها شلنج مشهورًا. وجاء إلى «بينا» عام ١٨٠١ كمعلم. وعاون شلنج في تدعيم موقفه الفلسفي، فقام شلنج بمساعدته بطرق كثيرة. بعد أن ذهب شلنج إلى «فورتبورج»، ظل هيجل في «بينا»، وحصل على الأستاذية في عام ١٨٠٥ . وأصبح الآن على استعداد لأن ينسلخ عن شلنج، الذي سخر منه عندما قدّم وجهات نظره عن العالم في كتابه «فينومنولوجيا الروح». وكان هيجل يقدر هذا الكتاب تقديرًا كبيرًا من حيث إنه أكثر كتبه أهمية، على الرغم من واقعة مؤداها أنه كان مضطرًا إلى أن يكمل أجزاءه الأخيرة المهمة بسرعة، ويدفع بالمخطوطة إلى صاحب المطبعة قبل حرب بينا عام ١٨٠٦(*).

واختل النظام في الجامعات، بعد تلك المعركة، التي جلبت الخراب على الألمان. وفقد هيجل أستاذيته، واضطر إلى أن يعول أسرته بقدر ما يستطيع، فعمل لمدة سنتين رئيسًا لتحرير إحدى الصحف اليومية(**)، ولمدة ست سنوات ناظرًا في إحدى مدارس البنين.

(*) هذا هو المبرر الذي يسوقه هيجل تفسيراً لصعوبة كتابه «ظاهريات الروح» لكنه ليس صحيحاً على الإطلاق، بل أن السبب الحقيقي هو أنه كان يمر في هذه الفترة بأزمة مالية طاحنة، في الوقت الذي رفض فيه الناشر أن يعطيه المبالغ المتفق عليها قبل أن يتسلم بقية الكتاب ـ وكان يرسله بالبريد على دفعات ـ ومع دقات طبول الحرب أصبح هيجل في مأزق حاد فاضطر أن يكمل الكتاب على عجل. طالع القصة بالتفصيل في الدراسة المطولة التي صدرنا بها ترجمتنا العربية للظاهريات (المراجع).

(**) في رواية أخرى أنه عمل لمدة عام واحد رئيساً لتحرير صحيفة «بامبرج» اليومية (المراجع).

وبالرغم من اضطرابات تلك السنين، فإن هيجل استمر فى العمل بمثابرة، وأكمل بحثه الأكثر إحكامًا وهو «علم المنطق» (يشار إليه غالبًا بـ «المنطق الكبير)[*]. وقَبِلَ فى عام ١٨١٦ الأستاذية فى جامعة «هيدلبرج»، حيث نشر بيانًا شاملًا لمذهبه، أعنى «الموسوعة» (التى تتكون من «المنطق الصغير»، و«فلسفة الطبيعة»، و«فلسفة الروح»). واستدعى فى عام ١٨١٨ إلى برلين بوصفه «الرجل الذى يستطيع أن يملأ بجدارة كرسى الفلسفة الذى كان شاغرًا منذ وفاة فشته»[١] وأثناء إقامته فى برلين نشر كتابه «فلسفة الحق»، وألقى سلسلة من المحاضرات العديدة (التى نُشرت بعد وفاته)، طبق فيها منهجه على تفسير التاريخ، والفنون الجميلة، والدين. واحتفظ بقيادة الفكر الفلسفى فى ألمانيا حتى وفاته نتيجة لإصابته بوباء الكوليرا عام ١٨٣١ .

وكانت شخصية هيجل غير عادية فى بعض الجوانب. فعندما عارض أسلافه المباشرين مثل فشته، وشلنج، كان يبدو موضوعيًا بصورة لافتة للأنظار. ولم يعمل مبشرًا مثل فشته، ولم ينغمس فى شطحات سارة مثل شلنج والرومانسيين الآخرين. وكان همه الوحيد أن يفهم العالم كما هو، وأن يفسر كل شىء تفسيرًا منطقيًا. ومن الصواب أن نقول إن محاضرات برلين، كشفت عن استبصار ملحوظ فى جوانب الحياة التى هى بطبيعتها وجدانية إلى حد كبير، مثل الفن، والشعر، والدين. ولم يكن فى استطاعته أن يفهم تلك الجوانب فهمًا جيدًا كما فعل، إذا لم يكن قد خبر مشاعر الآخرين. غير أن ذلك لم يظهر فى كتاباته أبدًا على الإطلاق. فهو يصف تجارب النفس الداخلية بنزاهة كما يفعل العالم الذى يصف. وهناك وجه آخر من شخصية هيجل، لابد أن نذكره عابرين، وهو ولعه بالمفارقات. فمنذ طفولته وما بعدها، كان مزاجه الجاف يستمتع بلفت الانتباه إلى حقائق ووقائع تبدو غير متسقة، مع إنها يجب أن تقبل ويتم التوفيق بينها بطريقة ما[٢].

وربما كان هيجل أعظم الفلاسفة ثقة بنفسه، فقد كان على يقين أنه فسَّر البناء الروحى للكون تفسيرًا مقنعًا. وحتى الله، كما لوحظ، لم يسمح له ـ فيما يبدو ـ بأية أسرار يعجز عقل هيجل عن كشفها. ومع ذلك، فنادرًا ما يثير هيجل ذلك النوع من العداء الذى أحدثه فشته فى بعض القراء. ولم يتحدث هيجل عن نفسه أبدًا؛ وإنما يضع أمامنا مسار الواقع بهدوء على نحو ما يعتقد أنه كذلك بالفعل، دون الكشف عن أى أهواء شخصية أو أحكام

(*) تمييزاً له عن «المنطق» الصغير الذي هو الجزء الأول من موسوعة العلوم الفلسفية (المراجع).

مبتسرة أو عواطف. ويعتقد المعجبون بهيجل حتى اليوم أنه وصل إلى قمة التفكير الفلسفى: إذ يظهر لأول مرة فى التاريخ غرض مقنع «للفلسفة الكلية» التى تقدم نحوها الفلاسفة السابقون جميعًا ببطء شديد[٣]. فعلى حين أنهم سلموا بأخطاء عارضة فى صياغة هيجل، ولفتوا الانتباه إليها، فقد أصروا على أن نتائجه الأكثر أهمية ستبقى طوال الزمن الحقيقة النهائية فى الفلسفة. الهيجليون، من جانبهم، متسامحون ومتعاطفون، على الرغم من تصنعهم إلى حد ما؛ فكل فلسفة أخرى تحتوى على قدر ملحوظ من الحقيقة ولا تحتاج إلا أن تكمل نفسها، وتُصحح فى الضوء الكامل للمطلق أو فى المثالية الموضوعية عند الهيجليين.[٤]

٢ ـ المفاهيم الأساسية

يتفق هيجل مع فشته وشلنج على أن الواقع النهائى، أو الكون، هو روح مطلق، أو روح، تمرخلال مراحل من التطور فى الزمان، وتصبح واعية بنفسها فى العقل البشرى، مع إن هذا المطلق لا زمانى، وأزلى، ويشمل كل شىء، ومكتمل بذاته. ويزعم هيجل أنه يبين عن طريق منهجه المنطقى (الذى يسميه بالجدل) كيف يرتبط كل شىء من حيث المبدأ بكل شىء آخر ويساعد فى تكوين ذلك الكل الواحد. ولا يسير منهج البرهان عند هيجل فى خط مستقيم على نحو ما يفعل المنهج عند ديكارت، إذ أنه لم يبدأ بقضية بسيطة لا يمكن الشك فيها، ويحاول أن يبرهن على كل خطوة متتابعة فى حجته العظيمة بطريقة رياضية. وإنما النسق عنده هو نسق تضمينى؛ بمعنى أن كل طور من أطوار الحجة يتضمن بقية الحجة كلها. وهذا الاعتماد المتبادل بين جميع التفصيلات وشمول التفسير الذى يكون فيه كل شىء متضمنًا بلا التباس أو عدم اتساق فى أى مكان يبرهن على حقيقة النسق ككل. والنسق الذى يتم فيه تفسير كل شىء بطريقة واضحة ومتسقة لابد أن يكون صادقًا. لأن «الحقيقة هى الكل». إن الحجة فى كل مكان عقلية، لأن «الواقعى عقلى»، و«العقلى واقعى».

المذهب الهيجلى محكم للغاية حتى إننا لا نستطيع أن نتعقبه فى كل تفصيلاته فى فصل واحد. ولا نستطيع هنا سوى أن نشير إلى بعض المفاهيم الأساسية، ومنهج البحث، وبعض النتائج التى وصل إليها هيجل. ولا يمكن أن ينصف هذا التفسير المختصر شمول

المذهب وعمقه، ولا أن ينصف عمق النظر فى تفصيلات متنوعة ذات قيمة أثنى عليها كثيرون حتى ممن لم يقبلوا المذهب بأسره. ولكى نصل إلى فهم كاف لهيجل، لابد من قراءة أعماله الخاصة فى ضوء التعليقات، وكثير منها ممتاز (انظر المراجع فى نهاية هذا الفصل).

وأحد المفاهيم الرئيسية عند هيجل هو تصور «علاقة الكل بأجزائه». إن أى جزء من الكل هو على ما هو عليه بفضل علاقته بالنسق ككل وبالأجزاء الأخرى. وربما نلاحظ ذلك بصورة أكثر وضوحًا فى الكائنات الحية. ففى أى كائن حى، يكون كل عضو على ما هو عليه لأنه جزء من كل . ولا يمكن أن ينشأ جزء أو يبقى إذا لم تدعمه الأجزاء الأخرى ويساعد هو فى تدعيمها. (وهذا التفسير للكائنات الحية، الذى ربما يدين به هيجل لأرسطو، الذى يدين له بطرق كثيرة، هو تفسير صحيح، على الرغم من أنه قد يكون فى نبات ما أو حيوان ما أجزاء قليلة ليس لها فائدة أو حتى أجزاء ضارة مثل الزائدة الدودية فى الإنسان، وقد أهمل هيجل هذه الاستثناءات). وقد مدَّ هيجل مفهوم العلاقة بين الأجزاء والكل فى الكائن الحى إلى كل حقيقة وواقع. فكل حقيقة أو واقعة Fact تعتمد على حقيقة أخرى أو واقعة أخرى، وتساعد بدورها فى تحديدها. وقد عُرف هذا المذهب منذ عصر هيجل «بالنظرية العضوية للحقيقة والواقع»، (لأن كل شىء محدد تحديداً داخليًا عن طريق علاقاته بكل شىء آخر) من حيث إنه يعارض المذهب المقابل وهو «تخارج العلاقات»، الذى نجده عند لوك.

وينتج عن ذلك التصور أن أى كل عضوى هو أكثر من مجرد المجموع الرياضى لأجزائه. ومن الواضح أن تلك هى الحال فى حياة النباتات والحيوانات. وعمل الفن الناجح هو أيضًا كل عضوى بالمعنى الهيجلى. لأنك لا تستطيع أن تفهم معنى صورة ما ببساطة عن طريق تحليل التركيب الكيميائى للقماش والألوان المختلفة، مع أنها أساسية ولا يمكن أن توجد الصورة بدونها. ولا تستطيع أن تقيّم الرسم عن طريق دراسة كل صورة بذاتها. إن لكل صورة علاقة فنية بالباقى، فهى جزء من كل واحد، والدلالة الحقيقية لهذا الكل ليست مجرد إضافة لأجزاء مختلفة. ومع إن الكل ليس شيئًا منفصلًا عن الأجزاء، موجوداً بصورة مستقلة؛ بل هو ببساطة تلك الأجزاء مأخوذة معًا فى وحدتها. ويحدد الكل من الناحية المنطقية طبيعة كل جزء. وإذا كان الفنان ناجحًا، فإن كل تفصيل فى اللوحة التى رسمها، يساهم فى الكل الذى تصوره من قبل. إن الحقيقة الواقعية، أو المطلق،